

## تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

شهدت العقود الأخيرة في حقل الدراسات الإسلامية في الغرب إعادة نظرٍ في جملة من الفرضيات التي سادت الاستشراق الكلاسيكي. ومن أشهر هذه الفرضيات القول بأنَّ شمس المعرفة العقلية قد بدأت بالغروب مع نهاية القرن الخامس الهجري، ثم لفَّ ظلام الجمود عالم الثقافة الإسلامية مع نهاية القرن الثامن الهجري. وقد عُرفت هذه الفرضية بصور شتى، منها القول بانغلاق باب الاجتهاد في الفقه، أو القول بسيادة التقليد والتكرار في أصول الفقه وعلم الكلام، أو بنضج علوم الآلة واحتراقها، وانكباب المتأخرين على شروح المتقدمين والتحشية عليها دون إضافة تُذكر.

ولا تفتقر هذه الفرضية إلى شواهد تُشير إلى التحوُّل في أنماط التعليم والتأليف، وإلى دخول آفاتٍ عدَّة إلى الحياة العلمية في الحواضر الإسلامية، خاصةً إذا قصرنا النظر على الحياة العلمية في مصر في القرن السابق لدخول الاستعمار الفرنسي، كما يرد في شهادات الجبرتي وحسن العطار وغيرهما. غير أنَّ تعميم هذه الملاحظات على القرون الستة السابقة وعلى الجغرافيا الإسلامية كافةً، هو بلا شكَّ ضرب من التعميم المتعجل، الذي لم يخضع للفحص الدقيق.

يمثِّل هذا الكتاب دراسةً معمقةً لواقع الفكر الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، الذي كثيرًا ما نُظر إليه -في سياق الدراسات العثمانية- بوصفه قرنَ التدهور الذي بدأ بعد وفاة السلطان سليمان القانوني (ت ١٥٦٦م)، أو بوصفه -في السياق العربي- قرنَ الجمود الذي استمرَّ إلى لحظة الصدمة الحضارية عند دخول الجيش الفرنسي إلى مصر عام ١٧٩٨م. إلا أنَّ الفحص الدقيق الذي يجريه المؤلِّف لواقع العلوم العقلية والاتجاهات الفكرية (في مباحث آداب البحث والمناظرة، وآداب المطالعة، وعلم الكلام، والتصوف) يكشف عن قدرٍ من الشراء والحيوية والاتصال الفكري في الحواضر العثمانية والمغربية، ويؤكد على ضرورة إعادة النظر في طبيعة الحياة الفكرية لذلك العصر.

وبالإضافة إلى ما تستلزمه هذه المقاربة في التاريخ الفكري من إنصافٍ ودأبٍ في التنقيب في مناطق معتمة تشخّ فيها المصادر والدراسات السابقة، فإنَّ أطروحة الكتاب تمتاز بالجمع بين تقديم رؤية عامّة لواقع هذا القرن وما سبقه وما تلاه، وبين العناية التفصيلية بشخصه ومباحثه وهجراته العلمية، حيث يمثّل الكتاب أيضًا فهرسةً بليوغرافيةً للأعمال التي أنتجها علماء المسلمين في الموضوعات المدروسة، ويبحث في شبكات العلماء وسلاسل الأسانيد وتوالي طبقاتهم، مما يكشف عن هيكل النشاط العلمي، ويستبعد تلك المقاربات التي تقصر دراستها على عالم بعينه، فتبرزه بوصفه عبقرًا فذًا وحيدًا في عصرٍ من الجمود، فظهور العلماء الأفاضل دليلٌ على حيوية الشبكة العلمية التي استطاع هؤلاء العلماء بمواهبهم الفردية البروزَ ضمنها.

كما تمتاز أطروحة هذا الكتاب بعنايتها بتاريخ المصنفات العلمية في هذا القرن؛ إذ يرى المؤلّف أنّ كثيرًا من الدراسات قد ركّزت على التاريخ الاجتماعي والمؤسسي والسياسي على نحوٍ حجبٍ مستجدات النشاط العلمي لتلك المرحلة. وفي هذا السياق، لا بدّ من التأكيد على اختصاص الكتاب بالمباحث العقلية، دون مباحث الفقه وتطوراتها الحاصلة في تلك المرحلة، وهو موضوع تناولته عدد من الكتب والدراسات، منها كتاب «الفقه والدولة والسلطان: الدولة العثمانية وصناعة الفقه الإسلامي» للدكتور سامي عبد الله أيوب، الذي صدرت ترجمته عن المركز أيضًا.

أما مؤلّف هذا الكتاب، خالد الرويهب (١٩٧٠م-...)، فهو أستاذ تاريخ الفكر العربي والإسلامي بجامعة هارفارد. وقد عرفه القراء العرب من خلال تحقيقه لكتاب أفضل الدين الخونجي «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار»، وعرفوا اشتغاله بتاريخ الأفكار في كتابه «ما قبل المثلية الجنسية في العالم العربي الإسلامي (١٥٠٠-١٨٥٠م)». كما أصدر المركز كتابه المهم «تطور المنطق العربي (١٢٠٠-١٨٠٠م)» بترجمة دقيقة وعناية بالغة من الدكتور أحمد شكري مجاهد، لا تقلُّ عن ترجمة هذا الكتاب دقّةً وعنايةً.

يأتي إصدار مركز نهوض للدراسات والبحوث لهذا الكتاب ضمن سياق عنايته بإعادة قراءة تاريخ الفكر الإسلامي، وإبراز أنماط حركته عبر المراحل التاريخية والمساحات الجغرافية المختلفة. كما يؤمن المركز بأن دراسة المرحلة السابقة لدخول الحداثة إلى العالم الإسلامي، ثم تفاعلات العالم المسلم مع أنماط التحديث الأوروبي، هي دراسة في غاية الأهمية، بغية تكوين فهمٍ دقيقٍ لتفاعلات الحداثة مع سياقاتنا العربية والإسلامية على المستويات كافة، وهو ما من شأنه أن يزيدنا تبصُّراً بما آلت إليه هذه التفاعلات في واقعنا الحضاري اليوم. وقد أصدر المركز جملةً من الكتب والترجمات في هذا السياق، منها كتاب «إحياء التشريع الإسلامي: استقبال القانون الأوروبي والتحويلات في الفكر التشريعي الإسلامي في مصر» للباحث الأمريكي ليونارد وود، وكتاب «إعادة اكتشاف التراث الإسلامي: كيف غيرت ثقافة الطباعة والتحقيق عالمنا الفكري» لأحمد الشمسي، و«الإسلام والتحديث: مشروعات التجديد في العالم الإسلامي (١٨٤٠-١٩٤٠م)» لتشارلز كورزمان، وغيرها.

وأخيراً، يرجو المركز أن يُسهم هذا الكتاب في إثارة النقاش وتعميق الفهم حول هذه القضايا المهمّة، وأن يجد فيه القارئ العربي إطلالةً نافعةً على مرحلة تاريخية طالها الكثير من النسيان والتشويه.